

الثورة الألمانية ١٨٤٨م: بحث حول نظرية للثورة

متروك بن هابس الفالح

أستاذ مشارك - قسم العلوم السياسية - كلية العلوم الإدارية

جامعة الملك سعود - الرياض - المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ١٢/٦/١٤١٥هـ، وقُبل للنشر في ٣/١٢/١٤١٥هـ)

ملخص البحث. انطلاقاً من النقطة الأساسية التي ترى أنه في محاولة للبحث عن نظرية للثورة الألمانية ١٨٤٨م، فإنه غالباً ما يمكن ملاحظة توافر تفسيرات ونظريات متعارضة ومتناقضة عن الثورة الألمانية ١٨٤٨م والتي بدورها غالباً ما تؤثر على نظرية الثورة الألمانية خاصة وكذلك على نظريات الثورة بصفة عامة، فإن هذه الدراسة وبعد بحث معمق تبدو قد تحققت جزئياً من تلك الفرضية، ذلك أن الدراسة قد كشفت عن أنه وبينما لا توجد نظرية محددة ومقبولة للثورة الألمانية ١٨٤٨م فإن هناك تفسيرات ونظريات عديدة متوافرة وفي اتجاهات متناقضة ومتعارضة ومرتبطة بعدد من العوامل تتراوح بين التوجهات الإيديولوجية أو الالتزامات السياسية والمالية أو المعادية للثورة والثوار، وكذلك التوجه الألماني وخاصة سياستها الخارجية خلال الفترة ١٩١٤-١٩١٧م وكذلك ١٩٤٥-١٩٣٣م. ومع ذلك فإنه من المفارقات أن تكشف الدراسة عن اتفاق بين تلك التفسيرات المتعارضة فيما يتعلق بدور الطبقة الوسطى في تبريد حرارة الثورة وإجهاضها ووضع حد لها، وذلك من خلال تحالفها مع قوى النظام القائم (القديم). وتلاحظ الدراسة، وبمنهج نقدي، أن عدم الوصول إلى نظرية محددة ومقبولة على نطاق واسع يعود أساساً لمسألة طبيعة العلاقة بين النظرية وموضوعها سواءً تعلق ذلك بمسألة العوامل ذات الصلة بالباحث (الباحثين) أم بمسألة النظرية ونصوصها وجدلية مقولاتها من حيث هي بنى وما تحاول أن تقول وما لا تقوله (تحقيقه) من افتراضات، وتساؤلات، ومتغيرات، بما يبرز حقيقتها المعرفية [صورتها عن الواقعة (الثورة الألمانية)] والتي تبدو قاصرة عن حقيقة الواقعة ذاتها. وتلك أيضاً ذات صلة وأثر ليس على نظرية الثورة الألمانية وإنما على تطور نظريات الثورة بصفة عامة من حيث تصادم النماذج المعرفية والنظرية ذات العلاقة بظاهرة الثورة.

المقدمة

تمثل الثورة الألمانية ١٨٤٨م واحدة من سلسلة من الثورات التي عصفت بأوروبا في تلك الفترة. وبالرغم من أن تلك الثورات ومنها الثورة الألمانية لم تكن بحجم الثورات الكبرى التي سبقتها أو لحقتها - كالثورة الفرنسية ١٧٨٩م والثورة البلشفية ١٩١٧م - فإنها قد أثارت العديد من الدارسين والباحثين لدراستها والتعمق فيها حتى في الإطار اللغوي [١]. وعلى الرغم من فشل تلك الثورات وخاصة الثورة الألمانية بعد أقل من سنة من اندلاعها [٢، ص ٤١١-٤١٥؛ ٣، ص ١٤١-١٤٨]، إلا أنها ذات أهمية بالغة لما تمثله من آثار وخلفية ومركزات ذات صلة بعلاقات الدولة بالمجتمع واتجاهاته وعلاقة ذلك بنظرية الثورة بصفة عامة. وباستثناء دراسات وبعض أطروحات ماركس وانجلر والتي كانت تتنبأ وتتوقع وتطالب بالثورة في ألمانيا وعاشتها مباشرة [٤، ص ٣٠، ٣١؛ ٢، ص ٤٢٢-٤٢٦]، فإن معظم الدراسات حول الثورة الألمانية إنما أتت لاحقاً عليها.

مشكلة البحث

انطلاقاً من اهتماماتنا الأكاديمية بنظريات الثورة والعنف في إطارها المقارن أو الخاص فإن هذه الدراسة، وهي لاتزعم بتقديم تفسير جديد للثورة الألمانية ١٨٤٨م، تحاول الإجابة على التساؤلات التالية: هل هناك نظرية محددة للثورة الألمانية ١٨٤٨م أم هناك نظريات متعددة؟ وإذا كانت هناك نظريات متعددة فما هو مدى تباينها وتناقضها وتشابهها؟ ثم ماهي تلك العوامل والمتغيرات التي أدت إلى تلك التباينات؟ وما هو أثرها على نظرية الثورة الألمانية خاصة والثورات بصفة عامة؟

فرضية الدراسة

تقوم هذه الدراسة على فرضية أساسية مفادها أنه في محاولة البحث عن إمكانية توافر نظرية محددة للثورة الألمانية بما هي انتفاضات وتمردات على صيغة العلاقة بين الدولة والمجتمع فإنه غالباً مايمكن ملاحظة تنوع وتباين في عدد من النظريات أو التفسيرات عن الثورة الألمانية، وغالباً ما يكون ذلك التنوع والتباين والذي قد يصل إلى درجة التناقض

والمفارقة في بعض الأحيان مرتبطاً بمتغيرات ذات صلة بتوجهات أيديولوجية لصاحب التفسير أو النظرية أو بالظروف السائدة (سياسية) أو طبيعة المادة العلمية المتوافرة عن الثورة والمدى المعرفي للنظرية. وتلك الحالة بدورها غالباً ماتؤثر على تحديد نظرية محددة ومقبولة للثورة الألمانية ١٨٤٨ م خاصة وكذلك على نظريات الثورة والتغير بصفة عامة.

الدراسات السابقة وأهمية الدراسة

بالرغم من أن هناك بعض الدراسات عن الثورة الألمانية، ولعل أهمها دراسة ثيودور هامرو [٥] والتي استفدنا منها في بعض التصنيفات الواردة عن بعض التفسيرات، إلا أن دراستنا، وبالإضافة إلى توافرها على مادة علمية تبدو أكثر حداثة وتمتد حتى ثمانينيات هذا القرن، فإنها قد وظفت بعض المعلومات والتي تبدو أنها وثيقة الصلة وقريبة من وقت الثورة وهي ملاحظات السفير الأمريكي في ألمانيا آنذاك والتي تبدو ذات أهمية في إبراز بعض الاتجاهات النظرية للثورة [٦] فوق ذلك، فإن الدراسة لم تتوقف عند ذلك وإنما أضافت بعض التفسيرات عن الثورة الألمانية وكذلك استفادت من الاتجاهات النظرية في دراسة العنف والثورة والتي تم توظيفها حيثما أمكن. تمسحاً مع ذلك فإن الدراسة تقدم إسهامه نظرية نقدية لعلاقة الحالة الثورية الألمانية بالمحاولات النظرية وأثر ذلك كله على مسألة نظريات الثورة بصفة عامة من حيث تباينها وصلة ذلك بتطورها وسيرورتها.

على هذا النحو تبدو الدراسة مفيدة ليس على مستوى الحالة الألمانية الثورية وإنما على مستوى تطور نظريات الثورة وكذلك في مستوى أعلى وأكثر تجريدًا، على علاقة النظرية بالموضوع والمسألة الموضوعية والذاتية في بحوث العلوم السياسية تحديدًا والعلوم الاجتماعية عامة. انطلاقًا من ذلك فإننا نعتقد أن تلك الدراسة، على الرغم من أنها ذات صلة بالحالة الثورية الألمانية وهي ما تبدو وكأنها بعيدة عنا، تقدم ملاحظات ومناقشات ذات أبعاد معرفية ونظرية تبدو في غاية الأهمية على المستوى النظري والمنهجي وصلة ذلك بالمنظومات المعرفية والفكرية وتطورها، وتلك الملاحظات والمناقشات تبدو مهمة لنا في المنطقة العربية ولغيرنا في المناطق الأخرى من العالم.

أخيرًا، فإننا وحسب اطلاعنا فإن هذه الدراسة وباستثناء بعض الكتابات عن النهوض السياسي الأوروبي [٧] بما فيه الألماني وكذلك الكتاب المترجم عن الثورات الكبرى

١٨٤٨ م [٨]، تعتبر دراسة عربية مركزة ومقارنة عن الثورة الألمانية ونظرياتها وعواملها نقدمها للقارئ العربي المتخصص والمثقف في الوقت نفسه. والدراسة وهي تركز على مسألة مدى توافر نظرية محددة للثورة الألمانية ١٨٤٨ م أم عدمها من خلال ملاحظة التباين والتنوع وما هي عواملها وآثارها، فإننا تستهدي بمنهج تحليلي مقارن وبمنهج نقد النص في بعض الأحيان.

الثورة الألمانية ١٨٤٨ م: ملاحظات أولية

بداية، نود أن نشير إلى أننا ونحن نتكلم عن الثورة الألمانية ١٨٤٨ م فإننا لانتكلم عن ثورة واحدة في عملية واحدة وسيرورة واحدة متصلة وإنما نتكلم عن مجموعة أو سلسلة من الانتفاضات والثورات داخل ألمانيا وفي دويلاتها آنذاك، ذلك أن ألمانيا في ١٨٤٨ م لم تكن موحدة على الرغم من أن تلك الدويلات تخضع لما يسمى بالكونفدرالية الجرمانية Ger-man Confederation [٩، ص ٣]. غير أنه ولمقتضيات البحث والدراسة وتمشيًا مع أدبيات الموضوع والتي غالبًا ما عاجلت الثورة الألمانية ١٨٤٨ م باعتبارها كل لا يتجزأ، فقد نظرنا إليها هنا كثورة واحدة.

إن تفحصًا دقيقًا وملاحظة معمقة لدراسات وأدبيات الثورة الألمانية ١٨٤٨ م يشيران إلى توافر عدد من التفسيرات والتي تبحث في طبيعة الثورة الألمانية وحقيقتها ١٨٤٨ م في حدوثها وسيرورتها ونتائجها سواء كان ذلك داخل ألمانيا أو في خارجها والتي بدورها يمكن أن تضع قيدًا على تبني نظرية محددة للثورة.

إجمالاً، يمكن الحديث عن تفسيرات أو نظريات معيارية أو قياسية عن الثورة الألمانية ١٨٤٨ م. إن جل التفسيرات عن أحداث ١٨٤٨ م يشدد بدرجة أو أخرى على أهمية العناصر السياسية للحركة أو على الميول القومية والدستورية للطبقة الليبرالية الوسطى أو كلاهما. غير أن تلك المقولة على إطلاقها تنزع إلى أن تحجب عددًا من التفسيرات (النظريات) الأخرى وبالتالي التقليل من شأنها وأثرها في التنوع وعوامله.

أولاً: نظرية الثورة الاجتماعية

يمكن القول إن أول نظرية تطرح تفسيراً يبدو واضحاً للثورة الألمانية ١٨٤٨ م هي نظرية الثورة الاجتماعية ذات الأصول الماركسية والاشتراكية لتحليل الثورات.

إن نظرية الثورة الاجتماعية للثورة الألمانية ١٨٤٨ م، وهي تنبع من تعاليم كارل ماركس ودراساته وكذلك فريدريك انجلز Marx & Engeles تقدم تحليلاً يبدو عليه الكثير من الاتساق والتناسق في الوقت نفسه . لعل كتاب ، «الثورة والثورة المضادة» والذي ظهر لأول مرة في عام ١٨٩١ م تحت اسم كارل ماركس يحتوي على النظرية الماركسية للثورة (التصور والتفسير الاشتراكي للثورة الألمانية ١٨٤٨ م).

إن كارل ماركس Marx في كتابه - الثورة والثورة المضادة - ينظر إلى البنية الاجتماعية وبالتالي إلى الصراع الطبقي على أنه القوة الحقيقية وراء الثورة الألمانية في عام ١٨٤٨ م [١٠، ص ص ٣٠-١]. بعد تحليل ماركس Marx للبنية الطبقة البروسية في عام ١٨٤٨ م توصل إلى نتيجة - تفصح عن نظرية الثورة الاجتماعية للثورة الألمانية ١٨٤٨ م - والتي تنص على أن:

«مع توافر تلك العناصر، فإن وقوع أقل تصادم ممكن كان لابد من أن يحدث ثورة عظيمة . ذلك أنه بينما كانت طبقة النبلاء العليا وكذلك الضباط والموظفون العسكريون والمدينون الأقدمون كانوا الداعمين على نحو أوثق للنظام القائم، فإن طبقة النبلاء الدنيا، والطبقات التجارية المتوسطة والجامعات، ونظار المدارس من كل درجة، وكذلك حتى جزء من الصفوف الدنيا للبروقراطية والضباط العسكريون كانوا كلهم متعصبين ضد الحكومة . إنه وبينما كانت تقف وراء أولئك الجماهير المستاءة من الفلاحين وبروليتاريا المدن الكبرى، يدعمون مؤقتاً، المعارضة الليبرالية، ولكنهم فعلياً يرددون كلمات غريبة تتم عن أخذ الأمور بأيديهم، وكذلك بينما البرجوازية كانت جاهزة لإسقاط الحكومة والبروليتاريا (العمال) كانوا بدورهم يعدون للإطاحة بالبرجوازية، فإن الحكومة قد انتحت على نحو عنيد وباتجاه كان لابد وأن يسبب التصادم . إن ألمانيا في بداية ١٨٤٨ م كانت على مشارف الثورة، وقد كانت تلك الثورة - وحتى بدون أن تعجل بها ثورة فبراير الفرنسية - قادمة بكل تأكيد» [١٠، ص ص ٢٤، ٢٥].

اتساقاً مع التحليل الطبقي، فإن فريدريك انجلز Engels يقدم تفسيراً للثورة الألمانية من خلال تفسيره لفشلها يلتقي به مع تفسير كارل ماركس الأنف الذكر . في مقالة له في صحيفة الراين الجديدة [١١] يجادل انجلز Engels بأن الثورة الألمانية ١٨٤٨ م لم تستكمل بسبب التحالف البرجوازي مع القوى الرجعية القائمة .

إنه يقول :

«هكذا فإن الثورة ولدت مجموعتين من النتائج كان لابد لهما من الانفصام . ذلك أنه وبالرغم من أن الشعب كان منتصباً حيث إنه قد كسب حريات ذات طبيعة ديمقراطية صريحة، إلا أن

السيطرة المباشرة انتقلت إلى أيدي البرجوازية الكبيرة ولم تنتقل إلى أيدي الشعب. إن الثورة باختصار، لم تُنجز حتى نهايتها؛ ذلك أن الشعب قد ترك تشكيل الحكومة (الوزارة) للبرجوازية الكبيرة، غير أن هذه الأخيرة سرعان ما أفصحت عن نواياها وذلك بدعوتها طبقة النبلاء البروسية القديمة وكذلك البيروقراطية للدخول في تحالف معها. . إن الطبقة الوسطى العليا كانت دائماً مضادة للثورة. إنه وبسبب خوفها من الشعب، وبمعنى آخر، من العمال والطبقة الديمقراطية الدنيا، فقد عقدت تحالفاً دفاعياً وهجومياً مع الرجعية» [١١، ص ٣٥، ٣٦].

إن نظرية الثورة الاجتماعية للثورة الألمانية (كما يطرحها كارل ماركس وفريدريك انجلز) تجادل بأن الشعب العامل هو في حقيقة الأمر الذي شكل قوى معركة الثورة؛ تلك القوى التي تحالفت مع البرجوازية التي خانتها. إن كارل ماركس يضعها بشكل أوضح عندما يقول:

«إن الجسد المقاتل الحقيقي للثوار، والذي أخذ السلاح ووهب القوات المعركة كان في كل الأحوال، قد تشكل من الطبقات العاملة للمدن» [١٠، ص ١٢٣].

إن سيطرة نظرية الصراع الطبقي وهيمنتها وأيديولوجياتها على أصحاب نظرية الثورة الاجتماعية للثورة تبدو واضحة ولها رجحان على ماعداها من معطيات الواقعة (الثورة) الأخرى والتي يبدو أنها أهملت. عليه فإن هناك ملاحظات أخرى تفصح عن ملامح نظرية عن الثورة الألمانية والتي وإن كانت تتفق والنظرية الماركسية للثورة في دور الطبقة الوسطى في إطفاء نار الثورة وحرارتها، إلا أنها كانت ترفض التحليل الطبقي انطلاقاً من أن الثورة الألمانية ١٨٤٨م ليست ثورة اجتماعية [١٢؛ ١٣، ص ص ٦١-٧٥؛ ١٤]. تأسيساً على ذلك فإن نويز P.H. Noyes، وبالرغم من اعترافه بأن الثورة الألمانية ١٨٤٨م كانت ذات أهداف اجتماعية وكذلك أهداف سياسية - إلا أنه يرفض على ما يبدو أطروحة الثورة الاجتماعية عندما يقول:

«إنها كانت مختلفة عن النمط المزعوم لثورة الماضي ذلك بأنها لم تشكل تقليداً مباشراً لثورة ١٧٨٩م. كذلك فإنه إذا كانت أحداث ١٨٤٨-١٨٤٩م لم تتبع النمط والذي توقعه كثير من ليبرالي الطبقة الوسطى كنمط للثورة الماضية، فإن تلك الأحداث لم تتبع الطريق الموصوف للثورة والذي كان عليها أن تسلكه كما حدده بيان ماركس للثورة البروليتارية» [١٢، ص ص ٣٨٠-٤٧٩].

أما كيرتز Kertesz فإنه ينكر اشتراكية الثورة الألمانية ١٨٤٨م مذكراً بالقول إن «... علينا أن نتذكر بأن اليسار الاشتراكي أو الراديكالي في عام ١٨٤٨م كان - حتى في فرنسا -

أقلية صغيرة تمامًا، وإن الليبراليين هم الذين كانوا قد برزوا في مقدمة الحركة الثورية، خاصة في ألمانيا. إن هناك براهين معاصرة كافية لتبين بأن الليبراليين المعتدلين قد تلقوا دعمًا شعبيًا واسعًا في كل من السنوات السابقة للثورة في ١٨٤٨م». [١٣، ص ٦١].

ويذهب Breuilly في تأييده لفكرة Kertesz عن عدم سيطرة الصراع الطبقي على ثورة ١٨٤٨م قائلًا «... إن الليبراليين انطلقوا بعملهم من تصور ينظر إلى المجتمع على أنه في الأساس مجتمع لا طبقي. إن معظم الاشتراكيين لم يتصور أكثر من وضع قيود على حقوق الملكية الخاصة والتي لم ينكر الحاجة إلى بعض محدوداتها إلا قليل من الليبراليين. إن الانقسامات في ١٨٤٨م كانت منصبية أكثر على الوسائل والغايات السياسية أكثر منها على القضايا الاجتماعية. فوق ذلك، فإنه من الصعب أن تنسب تلك الانقسامات السياسية إلى الفوارق الطبقيّة وهي التي كانت في ذاتها من الصعب تحديدها» [١٤، ص ١١٣].

وانسجامًا مع تلك الروح وتلك النغمة المناهضة لتفسير نظرية الثورة الاجتماعية، فإن John R. Gillis يرفض التفسير الماركسي للثورة الألمانية ١٨٤٨م عندما يقول، وهو يشير إلى George Taylor «إن وصف George V. Taylor للثورة الفرنسية، على أنها [«أساسًا ثورة سياسية ذات آثار اجتماعية وليست ثورة اجتماعية مصحوبة بآثار سياسية»]، ينطبق بشكل جيد على حد سواء على الحالة البروسية» [١٥، ص ٣٦٣].

إضافة إلى ذلك، فإن Priscilla Robertson وبالرغم من إدراكها للفواصل الاجتماعية بين الطبقات، ترفض أطروحة صراع الطبقات كسبب وليس كنتيجة لثورة ١٨٤٨م. إنها تفصح عن تلك النقطة بوضوح عندما تقول:

«إن كارل ماركس، وقد كان في عام ١٨٤٧م قد أرسى فعليًا مبدأ الصراع الطبقي في البيان الشيوعي، رأى بأنه ما إن تشكل المجتمع فإنه من الصعب انصهاره. غير أن الصراع الطبقي كواقع سياسي كان بالأحرى نتيجة لثورة ١٨٤٨م ولم يكن سببًا لها. ذلك بأن القادة لم يكن لديهم الوقت الكافي أو الميول لقراءة البيان وبالتالي فإنهم قادوا عصيانهم، بعضهم بأمانة أكثر والبعض الآخر بالقليل منها، اعتقادًا بأن كل الطبقات تستطيع الاستفادة سوية. ومع أن الليبراليين، اكتشفوا - فقط بعد كسبهم للثورة - بأنهم خائفون من العمال، فإن العمال انكبوا على التبشير الماركسي فقط عندما اكتشفوا تلك الحقيقة» [١٦، ص ٦].

ثانيًا: نظريات أخرى على تخوم نظرية الثورة الاجتماعية

هناك عدد من النظريات والتفسيرات عن الثورة الألمانية ١٨٤٨م والتي تبدو أنها تتفرع أو تتقارب من أو تقع على حدود نظرية الثورة الاجتماعية، ولكنها ذات مضامين وتميزات محددة.

١ - نظرية التطور الصناعي والاقتصادي والثورة

إن هناك، في المقابل، باحثون للثورة - متأثرون بدرجة كبيرة أو قليلة بالتحليل الماركسي - اقترحوا من التحليل الطبقي والبنية الاجتماعية حيث رأوا في الثورة أنها أساسًا نتاج للتغير والضغوط الاقتصادية والاجتماعية المتراكمة وأن السياسة لعبت دورًا ثانويًا في إعطائها شكل الأحداث واتجاهها.

إن إريك هوبزباون Eric Hobsbawn يمكن اعتباره بأنه أفضل من يمثل هذه النظرية وهذا التصور في تفسير الثورات الأوروبية ١٨٤٨م بما فيها الثورة الألمانية. إن إريك Eric Hobsbawn يجادل في تلك النقطة، قائلاً:

«وراء تلك التغيرات الكبيرة في السياسة تقع تغيرات كبيرة في التطور الاجتماعي والاقتصادي. ذلك أنه مهما يكن العنصر من الحياة الاجتماعية التي يمكن النظر إليها، فإن سنة ١٨٣٠م تمثل نقطة تحول فيها حيث إنها من كل التواريخ بين ١٧٨٩ و ١٨٤٨م، تعتبر البارزة والجديرة بأن تذكر. إنه في تاريخ التصنيع والتمدن في القارة وفي الولايات المتحدة الأمريكية سواء تعلق ذلك بتاريخ الهجرة البشرية والاجتماعية والجغرافية، أو تعلق بتاريخ الفنون والأيدولوجيا، فإنها (أي فترة ١٨٣٠م) تبدو بشهرة متساوية. وفي بريطانيا وأوروبا الغربية عامة، فإن ١٨٣٠م تؤرخ لبداية تلك العقود من أزمات التطور للمجتمع الجديد والذي ينتهي باندحار ثورات ١٨٤٨م والقفزة الاقتصادية العظمى إلى الأمام بعد ١٨٥١م...

إن الموجة الثالثة والكبرى من تلك الموجات الثورية، والتي كانت ذات صلة بعام ١٨٤٨م، إنما كانت نتاج لتلك الأزمة» [١٧، ص ١٤٠].

واتساقاً مع تلك الأطروحات، فإن هاجو هولبورن Hajo Holborn يربط بين الثورة الألمانية ١٨٤٨م وبين الأزمة الاقتصادية وما رافقها من توترات اجتماعية وكذلك تدهور النظام الاجتماعي. ففي كتابه عن تاريخ ألمانيا الحديثة ١٨٤٨-١٩٤٥م، يرى Holborn أن:

«الثورة في ألمانيا لم تكن نتيجة إثارة المثقفين الليبراليين ولكن نتيجة لانفجار التوترات الاجتماعية والتي نتجت عن تحليل النظام الاجتماعي والذي عجلت به حديثاً الأزمة الاقتصادية» [١٨، ص ٥٧].

وفي موضع آخر، وفي محاولة منه لتفسير فشل الثورة الألمانية ١٨٤٨ م، فإنه يعود إلى أسباب قيامها مؤكداً أن:

«إن الاستياء الاجتماعي هو أصلاً الذي قد أشعل الثورة. إنه بدون انتفاضات الفلاحين، وأهمها على الإطلاق، نضال الحرفيين والعمال، فإنه لم يكن للثورة في ألمانيا أن تحدث، ولا كان للحكومات مارس، وللجمعيات البرلمانية في فرانكفورت، وبرلين، وفيينا وجود. ومع ذلك فإن تلك الانتفاضات الجماهيرية تركت، مؤقتاً، للطبقات الوسطى العليا وضعاً قيادياً...» [١٨، ص ٩٩].

٢ - نظرية الطبقة الوسطى والثورة

واقتراباً من تلك الأطروحة، فإن إدوارد شورتر Edward Shorter وفي مقالة له عن قلق الطبقة الوسطى في الثورة الألمانية ١٨٤٨ م، يبدو أنه يفسر الثورة الألمانية على أساس يقترب من التفسير الاقتصادي والاجتماعي. إن مناقشة Shorter تعتمد على تحليل انطباعي لحوالي ٦٥٦ مقالة سلمت إلى ملك بافاريا في إطار «مسابقة المقالة الملكية». بناء عليه فإن Edward Shorter يزعم بأن تلك المقالات تمثل مصدراً فريداً لقياس اتجاهات الرأي العام في بافاريا وكذلك ألمانيا ككل خلال ثورة ١٨٤٨ م. إن Edward Shorter يكشف عن هدفه قائلاً:

«هكذا فإن مجموعة من الفرضيات تحاول إذن أن تعدّل من المدرسة المعرفية القائمة في ثلاث طرق، أولاً: بتنفيذ السيطرة المزعومة للقضايا القومية والسياسية على العقل الألماني، ومن ثم الإصرار، بدلاً من ذلك، على أنه حتى في مستوى الأيديولوجية الرسمية المحددة، فإن الاهتمامات الاجتماعية طغت على الاهتمامات الأخرى؛ ثانياً: بتعيين هوية المصدر الرئيسي للاضطراب على أنه ليس الطبقات الدنيا الطليعة وإنما الطبقات الوسطى الساخطة؛ ثالثاً: بالتأمل ملياً بأن الثورة خمدت بسبب فشل السياسيين في تسخير الطاقة الثورية الكامنة والمتأصلة في قلق الطبقة الوسطى هذه» [١٩، ص ١٩٠].

ويختتم Edward Shorter مناقشته، محدداً موقفه من متغيرات الثورة ١٨٤٨ م بقوله:

«لقد جادلت بأن الطبقة الوسطى العريضة شعرت باستياء جذري من النظام الاجتماعي

القائم في ١٨٤٨م، وأن سخطهم تركّز على قضايا النمو السكاني، والمكننة، والصناعة الحديثة، والخلاعة. . غير أنه وبظرة متوازنة، فإن قضايا التغير الاجتماعي تبدو أنها الأكثر على الأرجح في أن تكون وراء تعبئة الشعب للقيام باحتجاج جذري ضد النظام القائم» [١٩، ص ٢١٣، ٢١٤].

٣ - نظرية التحولات الرأسمالية: الدولة والمجتمع والثورة

أما لينور أو بويل Lenore O'Boyle، وفي دراسة له عن اليسار الديمقراطي ١٨٤٨م، فإنه يجمع بين التحولات الرأسمالية في ألمانيا وأثرها على تدهور الطبقات الحرفية من جهة وبين تطورات الدولة والبيروقراطية الألمانية وحاجتها إلى الطبقة المتعلمة التي لم تستطع استيعابها لوفرتها مع عدم وجود الأساس الاقتصادي الذي يستطيع أن يقدم الفرص للمزارعين والمدرسين منهم من جهة أخرى [٢٠، ص ٣٨٣]. وعلى نحو أدق فإن O'Boyle يقترب كثيراً من التحليل الطبقي للثورة عندما يقرر بقوله:

«من المتفق عليه أن الثورة الألمانية كانت في الأساس صراع طبقة رجال الأعمال الصاعدة ضد الإقطاع والسلطة الفردية، وقد ترافق هذا الصراع مع انتفاضة طبقة حرفية آخذة في الزوال ومعاناة لتأثيرات رأسمالية مبكرة. إن الحرفيين والذين لم يستطيعوا المنافسة مع إنتاج المصنع الرخيص، فإنهم مع ذلك لم يكن بالإمكان استيعابهم بواسطة تلك المصانع والتي مازالت أعدادها غير كافية. وفي الواقع، لقد كان لدى ألمانيا زيادة في قوة العمل اليدوية. إن ألمانيا كانت تعاني، ولربما لم يكن ذلك مدركاً على نطاق واسع، من فائض في العمال المفكرين، ولقد كان أولئك المثقفون ذوو الوضع المتقلقل هم الذين ساندوا المطالب الراديكالية وليست المعتدلة للطبقة الوسطى. وبينما البروليتاريا الحرفية نتجت عن الآثار العابرة لرأسمالية مبكرة، فإن البروليتاريا الفكرية نتجت عن تطور ألمانيا، والذي قد حدث في أثنائه أن نمو الدولة البيروقراطية المطلقة كان قد سبق نمو الصناعة الضخمة. وبالرغم من أن حاجة الدولة لطبقة متعلمة قد شجع على التخصصات المهنية، فإن الأساس الاقتصادي للبلاد لم يقدم، في المقابل، فرصاً اقتصادية وفيرة للعناصر المدربة والطموحة. وبما أن خدمة الدولة كان ينظر لها على أنها المصدر الأساس للمكانة الرفيعة، فإن أية مهنة مكتسبة بالتعليم كان متوقعاً لها، تقريباً، أن تنطوي على مكانة أرفع من تلك المكانة ذات الصلة بنشاط الأعمال. ولذلك كانت النتيجة وفرة كثيرة في موظفي الدولة والأشخاص من ذوي المهن من جهة، وعدد قليل جداً من الصناعيين من الجهة الأخرى» [٢٠، ص ٣٨٢، ٣٨٣].

٤ - الثورة الألمانية ١٨٤٨م ونظرية الإزاحة الاجتماعية والعنف

وعلى نحو يقترب من تحليلات O'Boyle ، وخاصة فيما يتعلق بانتفاضة الطبقة العاملة الحرفية ضد التصنيع فإن تشارلز برونج Charles Breunig وعلى الرغم من أنه لا يرى بأن الثورة الألمانية ١٨٤٨م ثورة اجتماعية على أساس من صراع الطبقات إذا ما قورنت بالثورة الفرنسية ١٧٨٩م [٢١، ص ٥، ٧]، فإنه يرى أن أسباب ثورة ١٨٤٨م في ألمانيا تعود إلى أسباب اجتماعية وسياسية، مشددًا على دور العمالة الحرفية في الانتفاضة ضد التصنيع، حيث إن تنازلات الحكام للمطالب السياسية لم تفض على العنف، وفي ذلك يقول Breunig:

«... معظم حكام ألمانيا... وعدوا بدساتير وإصلاحات أخرى وعرضوا على رعاياهم إعطاءهم مشاركة في الحكومة. غير أن تلك التنازلات، على أية حال، لم تستأصل التهديد بالعنف؛ ذلك أن أسباب الثورات في ألمانيا كانت اجتماعية وسياسية أيضًا. إن القوة الملهبة لعمال الحرف ضد التصنيع والذي حرّمهم من الاسترزاق تفجرت في شكل هجمات ضد الآليات والمصانع» [٢١، ص ٢٦٠].

٥ - نظرية الثورة الاجتماعية الكامنة وحدودها

أما ثيدا سكوكبول Theda Skocpol ، وفي دراستها القيمة عن الدول والثورات الاجتماعية الصادرة في عام ١٩٧٩م، فإنها وإن كانت ترى أن الثورة الألمانية ١٨٤٨م في بدايتها كانت ثورة ليبرالية - شجعته الثورات في أوروبا وخاصة في باريس - ولم تكن ثورة اجتماعية إلا أنها ترى أن الأوضاع في ربيع ١٨٤٨م وبعد مارس واندلاع الثورة الألمانية، كانت تتجه نحو كامنيه لوضع من الثورة الاجتماعية [٢٢، ص ١٤٥]. ولكن Theda Skocpol تستدرك، في محاولة لتفسير عدم تحول ذلك الوضع الكامن إلى ثورة اجتماعية ناجحة بالإشارة إلى دور الفلاحين في تلك الثورة مقارنة بدور فلاحي فرنسا أثناء الثورة الفرنسية ١٧٨٩م. وفي ذلك ترى Theda Skocpol أن الثورة الألمانية ١٨٤٨م، وبالرغم من أنها لم تكن خالية من مشاركة الفلاحين وخاصة في المنطقة الغربية الجنوبية لألمانيا، إلا أنها كانت ضعيفة وخاصة كلما كان الاتجاه نحو شرق الألب حيث يزداد موقف الفلاحين ضعفًا في مواجهة النبلاء في تلك المناطق [٢٢، ص ١٤٥، ١٤٦]، مما أتاح للجيش الألماني وخاصة

في بروسيا أن يبقى متمسكاً وبالتالي استطاع فريدريك وليام Frederick William من استخدامه في الفترة ١٨٤٩-١٨٥٠م في القضاء على الثورة الألمانية وعناصرها الليبرالية الاجتماعية [٢٢، ص ١٤٧].

ويجب أن نشير إلى أن Theda Skocpol تنطلق من أرضية ماركسية ولكنها لا تنقيد بحدودها وقوالبها وإنما تدخل في ذلك اعتبارات أخرى (الاختراق والحروب) ولذلك فهي تصنف ضمن أولئك الباحثين عن الثورة في إطار ما يطلق عليه الجيل الثالث من منظري الثورات [٢٣]. ويبدو أن فشل الثورة يعود، بناءً على نظرية Theda Skocpol إلى تلك العوامل المذكورة وخاصة أن الضغوط الخارجية والاختراقات في مواجهة البنى الداخلية لم تكن قوية.

ثالثاً: النظرية القومية - الليبرالية وثورة ١٨٤٨م

يمكن القول إن التفسير الذي تقدمه النظرية «القومية - الليبرالية» عن الثورة الألمانية ١٨٤٨م يعتبر من أكثر التفاسير قبولاً ومعقولية في نظر كثير من الباحثين. إن هذه النظرية بشكل عام تركز على الجوانب السياسية أكثر بكثير من تركيزها على العناصر الاجتماعية. غير أنه وفي إطار هذه النظرية، فإن هناك تنوعات نظرية فرعية تتعلق بدرجة التركيز على العنصر القومي أو الليبرالي في الثورة. في هذا السياق يمكن القول إن هناك نظريات مختلفة في ألمانيا أو خارجها، وذلك طبقاً لدرجة تركيزها على أي من عناصر تلك الثنائية (الليبرالية - القومية) والتي يبدو أنها تعود لأسباب ذات صلة، بدرجة أو أخرى، بتحليل معرفي أو حكم أيديولوجي أو قيمي أو بموقف سياسي.

(١) نظرية القومية البروسية وثورة ١٨٤٨م

ظهرت النظرية القومية البروسية في فترة الردة والانتكاس، وهي الفترة التي أعقبت وتلت ثورة ١٨٤٨م. تلك النظرية والتي يحددها هامرو Hamerow بأنها مرتبطة بكل من Sybel و Treitechke أخذت على عاتقها إلقاء التفسير الاشتراكي لثورة ١٨٤٨م جانباً ومواصلة بث الدعوة والتبشير بالقومية للجيل الجديد، مشددة على أن القومية الألمانية وخاصة البروسية هي المحرك الأساس للثورة الألمانية ١٨٤٨م. إن هامرو يعطينا صورة

واضحة عن هذه النظرية حيث يرى أنها تنادي وتبشر بالعقل والدم والحديد (أي بالقوة والتضحيات) وتعطي أهمية خاصة للقوى الروحية للأمة ومعاركها وتقلل من شأن التأملات والتوجهات الليبرالية [٥، ص ٣٠].

ومن المفارقات المثيرة حقاً أن يشار إلى التقاء كل من النظرية القومية البروسية والنظرية الماركسية للثورة بعناصر عديدة وأساسية. ومن تلك النقاط التي تشتركان فيها هي ليس فقط نظرة كل منها إلى سطحية وسذاجة المبادئ - الليبرالية وشجبتها للمقتربات والطرق القانونية وكذلك تكتيكات الثوار، ولكن أيضاً إفصاحهما عن عقلية متماثلة فيما يتعلق بدعوتها وتبشيرها بالدم والحديد (يقصد بذلك القوة والتضحيات) والفعل. ولعل الفرق الوحيد بينهما هو التنازع على بطل وزعيم القضية والذي سيكون بالنسبة للنظرية القومية البروسية، هو بسمارك المتلمس طريقه نحو الوعي بالمصير الرفيع، بينما هو لنظرية الثورة الاجتماعية، سيكون الطبقة العاملة الصناعية والتي تلقت درس الصراع الطبقي والمصلحة [٥، ص ٣١].

غير أن تلك الروح الجامحة نحو القومية قد خفت بعض الشيء وإن لم تنته كلية، وذلك في أعقاب طرد بسمارك ١٨٩٠م، مما أتاح جواً من الارتياح وأطلق موجة جديدة من البحث عن الثورة الألمانية ١٨٤٨م في محاولة لتقديم تفسير جديد للثورة. تمشياً مع ذلك، فقد قام كارل بايندنج Karl Binding من جامعة ليبزج Leipzig بإلقاء محاضرة مبرراً الحاجة نحو تاريخ موضوعي لفترة ١٨٤٨هـ. نتيجة لذلك، فقد ظهرت دراستان متعاطفتان مع الثورة في عامي ١٨٩٣م حيث دراسة فلهم بلوس Wilhelm Bloß وفي عام ١٨٩٨م حيث دراسة روبرت بلوم Robert Blum في دفاعه عن والده الليبرالي والذي قتل آنذاك [٥، ص ٣١].

وفي الفترة ما بين بداية القرن العشرين وعام ١٩٣٣م، كان هناك دعم واهتمام متزايد بثورة ١٨٤٨م. وتمشياً مع اتجاهات المدرسة القومية، فإن إريك براندنبيرج Erich Brandenburg، وهو وواعٍ للتداخل بين القضايا الاقتصادية والاجتماعية، يفسر الثورة الألمانية في إطار أوسع من الحركة الألمانية نحو التوحيد [٥، ص ٣٢].

(ب) نظرية الاشتراكية - القومية (النازية) وثورة ألمانيا ١٨٤٨م

ابتداءً من عام ١٩٣٣م فإن مرحلة جديدة من البحث والتفكير أخذت في الظهور والوجود على الساحة خادمة بذلك النظام السياسي المؤسسي بقيادة الاشتراكية - القومية . ومسخرة لتلك الأيديولوجية ، فإن المدرسة النازية نظرت لثورة ١٨٤٨م على أنها أكثر من كونها نتاج للبرالية والتي هي في حقيقتها ، كما تصورها النظرية ، ليست فقط غريبة على الثقافة الألمانية وإنما أيضاً - وهذا على جانب مهم - فإنها تعمل على إعاقة الحيوية لمؤسسات ألمانيا التقليدية . ومن المفارقات هنا ، أيضاً ، أن النظرية النازية تبدو متوافقة مع النظريتين الماركسية (نظرية الثورة الاجتماعية) والقومية البروسية في معاداتها ومهاجمتها للبرالية والأساليب الديمقراطية . فوق ذلك فإن أحداث ١٨٤٨م في تفسير النظرية النازية تصور على أنها «مؤامرة عالمية استغلت فيها المشاعر الألمانية في التطور . . من أجل القضاء على الإمبراطورية الألمانية كما حصل ١٩١٨م وكانت على وشك النجاح لولا أن أحبطتها الثورة القومية في عام ١٩٣٣م [٥ ، ص ٣٥] .

(ج) النظرية الليبرالية والثورة الألمانية ١٨٤٨م

سبقت الإشارة إلى أن النظريات والتفسيرات المعيارية للثورة الألمانية تضيف أهمية خاصة على العناصر السياسية المتصلة بحركة الطبقة الوسطى الليبرالية . ولعل المرشح الأفضل لهذه النظرية في داخل ألمانيا إنما هو فيت فالنتن Viet Valentin . إن Viet Valentin ، يضمن أطروحته في التفسير الليبرالي لثورة ١٨٤٨م في كتابه المشهور Geschichte der deutschen Revolution والذي ترجم إلى الإنجليزية بعنوان (1848: Chapters of German History) والذي ظهر حوالي ١٩٣٠-١٩٣١م . وفي مقالة له مأخوذة عن كتابه أعلاه ، ومنشورة في كتاب آخر بعنوان (1848: A Turning Point?) فإن Viet Valentin يوضح موقفه من الثورة ١٨٤٨م بقوله :

«إن الحركة الديمقراطية لقيت نجاحاً باهراً في كل مكان . إن الناس الذين كانوا في المعارضة قد دُعوا لتحمل مسؤولياتهم . ومع أن القتال وقع فقط في نقاط قليلة ، فإن الأفكار في النهاية حققت انتصاراً سياسياً ، وكذلك فإن الدولة السلطوية العسكرية لاشك قد أهينت» [٢٤ ، ص ٤٠] .

ومع أن Viet Valentin يشدد في مقالته على إسهام وقوة المشاعر الليبرالية في ألمانيا

١٨٤٨ م، إلا أنه يعترف بفشلها حين يقول، إنه وبالرغم من أن «الثورة الألمانية انتهت، فإن روحها لم تمت» [٢٤، ص ٤٢].

في إطار تلك الروحانية، فإن Viet Valentin لم يكن وحيداً إذ أن فريدرك مينك Friedrich Meinecke كان من المدافعين الأقوياء عن النظرية الليبرالية. ففي مقالة له ظهرت أصلاً في Review of Politics ثم أعيد نشرها في كتاب (1848: A Turning Point?) يحاول Freidrich Meinecke أن يبين أن ثورة ١٨٤٨ م كانت ثورة تحت قيادة الليبرالية، ولكن فشل الثورة كان محتوماً بسبب عوامل عديدة ومتنوعة ذات صلة بالطبيعة الخاصة بالنمو السياسي للدولة الألمانية وتطورها. ومهما يكن من أمر فإن تلك الهزيمة أو خطأها يجب ألا يوجها ضد المشاعر الليبرالية حيث إنها كانت لاتزال تتواصل في ألمانيا بعد فشل الثورة [٢٥].

على أنه وعلى الرغم من أن كلا من Meinecke و Valentin يركز على ما يبدو على التأثير السلبي لكل من القومية والمسائل الاجتماعية على الحركة الليبرالية ونتائجها لعام ١٨٤٨ م، فإن Meinecke يشدد على ما يبدو على عدم نضوج الحركة الليبرالية وعناصرها باندفاعها نحو الديمقراطية [٢٥، ص ٥٧، ٥٨].

إضافة إلى أولئك، فإن هناك من يناصر النظرية والتفسير الليبرالي للثورة الألمانية ١٨٤٨ م. فهذا هانز روثفلز Hans Rothfels، وفي مقالة له بمناسبة مرور مائة عام على قيام الثورة الألمانية، يحمل على ما يبدو روحانية ليبرالية تجاه ١٨٤٨ م عندما يرى بأن القضايا الاجتماعية والقومية تقاطعت على نحو مقدر مع المشكلات الليبرالية [٢٦، ص ٣٠٤-٣٠٧]، وكذلك عندما يعزو تنامي قدرة الحكومات بعد ١٨٤٨ م لحيرة وخوف الليبراليين من شبح الأحمر، وكذلك سرعة رغبتهم في إلقاء ثقلهم مع السلطات [٢٦، ص ٢٩٩]. وانسجاماً مع تلك الخطوط فإن فرنر كونز Werner Conze، المتخصص في الشؤون المعاصرة في جامعة هايدلبرج، يعزي فشل الثورة الألمانية ١٨٤٨ م إلى جملة أسباب لعل أهمها يعود إلى أن «الألمان وبالرغم من حمى الثورة لديهم، وعلى رأسهم، القادة الليبراليون توقفوا قبل أن يطيحوا بالعروش.. ذلك بأن القادة الألمان الليبراليين، كانوا مستعدين للتوصل إلى اتفاق مع الأمراء وقوى النظام إذا ماتم تحقيق رغباتهم الدستورية..» [٢٧، ص ٣٤]. إن هذا الاستعداد من الليبراليين للاتفاق مع الحكام مرده تخوف الليبراليين من تكرار السابقة التاريخية للثورة الفرنسية وخاصة في مرحلة العقاب

(وهي مرحلة تميزت بالتصفيات والإعدامات والعنف على نطاق واسع في فرنسا) والرعب المصاحب لها [٢٧].

(د) النظريات النفسية والثورة الألمانية ١٨٤٨م

إن معظم النظريات التي قدمت التفسيرات التي تمت الإشارة إليها سابقاً تركز حول النظريات الألمانية في تفسير الثورة ١٨٤٨م. وبالرغم من أن النظرية الليبرالية - القومية في تفسيرها للثورة تبدو هي المهيمنة إلا أن هناك عدم اتفاق على ما يبدو ما بين الباحثين والملاحظين من خارج ألمانيا مع أولئك من داخلها. إن الطابع القيمي الذي على ما يبدو، صاحب أولئك الباحثين من خارج ألمانيا هو الذي حدى بنا إلى مناقشتهم وفصلهم عن آراء أولئك من داخل ألمانيا.

إن تلك التفسيرات ذات الصلة بالنظريات النفسية للثورة الألمانية ١٨٤٨م تركز على نحو واضح على الشخصية والعقلية الألمانية باعتبارها مختلفة عن تلك المتوافرة للأمم الغربية الأخرى. إنها تنظر إلى أصول الأيديولوجية الشمولية على أنها متجذرة بقوة في الثقافة والحياة الألمانية. انطلاقاً من ذلك وتأسيساً على مسألة المرض النفسي فإن هذه النظرية ترى وتحلل الثورة الألمانية ١٨٤٨م. إن هذه النظرية هي نتاج على ما يبدو لرد الفعل، عند أولئك الباحثين ومن خارج ألمانيا، على السياسة الخارجية الألمانية والموسومة بالعدوانية والاندفاع نحو القوة كما في الحرب العالمية الأولى والثانية [٥؛ ٢٦؛ ٢٨].

إن أفضل من يمثل هذه النظرية هما كل من تايلر A.J.P. Taylor ونامير Lewis B. Namier والليدان في الوقت الذي يركزان على الاندفاع القومي الألماني نحو القوة، فإنها ينكران في المقابل قوة المشاعر الليبرالية لدى الألمان. وفي ذلك يقول لوس نامير Lewis Namier:

«إن ألمانيا، مع بداية عام ١٨٤٨م تبدأ محاولتها نحو القوة والهيمنة الأوروبية والسيادة العالمية. وحيث إن الحركة القومية كانت القاسم المشترك للثورة الألمانية ١٨٤٨م، فإن ألمانيا قوية ستكون مؤهلة لأن تعطي القانون للأمم الأخرى أقصى هدفه «...» إن الوحدة، الحرية، القوة «كان هو الشعار المطروح مع التركيز على المفهوم الأول والثالث من ذلك الشعار» [٢٩، ص ٦٩].

أما تايلر A. J. P. Taylor، فإنه وبالرغم من رؤيته، كما هي لدى Namier دوراً

للطبقة الوسطى الألمانية، إلا أنه يزعم بأن تلك الطبقة ضلت الطريق الليبرالي وذلك بعودتها واتباعها لطريق القوة وذلك باعتبار أن القوة كانت الدافع المهيمن على الطبقة وعناصرها فيما بعد ١٨٤٨م. إنه وعلى الرغم من أنه يرى بأن ثورة ١٨٤٨م، كانت ثورة زاحمة بالإيمان غير المحدود بقوة الأفكار في بدايتها فإنها انتهت إلى ثورة تنكرت بقوة لتلك الأفكار. ذلك أنه وبينما «نجاح تلك الثورة أضعف الأفكار المحافظة، فإن فشل الثورة شكك في الأفكار الليبرالية. بعدها، لم يبق إلا فكرة القوة، وتلك أصبحت منذ الآن فصاعدًا تقف عند دفة التاريخ الألماني... إن التاريخ الألماني وصل إلى نقطة التحول غير أنه فشل في أن يدور وقد كان هذا هو جوهر ١٨٤٨م المميت» [٣٠، ص ٥، ٣٧]. على هذا النسق يحلل أيضًا روي باسكال Roy Pascal الثورة الألمانية ١٨٤٨م ويتهم طبقتها الوسطى بانتهاج سياسة عدوانية. وفي تحليله لبعض خطابات البرلمانيين في فرانكفورت وهم من الطبقة الوسطى، يقول Pascal:

«... هذا الخطاب يوضح نظرة الطبقة الوسطى الألمانية. إنه التصوف لديها والذي يبرز في فكرة المصير التاريخي، ولربما أكثر تحديدًا، في الرسالة المنوطة بألمانيا لنشر الثقافة من خلال تمدد قوتها، باتجاه وعلى حساب الشعوب الأخرى والتي مقدر عليها بأن لا تصبح دولاً أبدًا». [٣١، ص ١١٩].

إن Pascal لا يقف عند هذا الحد، بل إنه وهو يهاجم الباحثين الألمان الذين يدافعون عن ليبرالية ثورة ١٨٤٨م، يشدد على أن القومية العدوانية الألمانية كانت على قدم وساق في الجمعية الوطنية في فرانكفورت ولدى الطبقة الوسطى بشكل عام. إنه يشدد على أن تلك «الألمانية المفرطة لم تكن شغفًا أكاديميًا أو مثالية مجردة، بل إنها كانت واحدة من الأسباب الرئيسة - ولربما السبب الرئيس - لخضوع الليبراليين الألمان لحكم السلالات، وبمعنى آخر فإنها، سبب فشل الثورة ككل...» [٣١، ص ١٢١]. وبالرغم من أن Pascal يرى بأن القومية الألمانية تعود في إطارها النظري كمنظرة دفاعية ردًا على الإذلال النابولي، إلا أنه يرى، وفي إطار ظهور مسألة الأقليات بعد ١٨٤٨م، بأنها أخذت طابعًا تطبيقيًا و«وضعت الطبقة الوسطى الألمانية وجهًا لوجه مع مشكلة غير متوقعة وطرحت على المكشوف القضية السياسية الأساسية للثورة» [٣١، ص ١٢١].

وتمتد ساحة هذه النظرية لتستوعب عددًا آخر من الباحثين أمثال الباحث الفرنسي، إدموند فيرمل Edmond Vermeil والأمريكي أرنولد وايتريج Arnold Whitridge والمغترب الألماني مونتي جاكوبز Monty Jacobs وكذلك بيتر فيرك Peter Viereck. وتمتد أطروحاتهم عن الثورة الألمانية ١٨٤٨م وفشلها في الاتجاه الليبرالي والديمقراطي إلى مقولات تتراوح ما بين التشديد على «العقلية الألمانية»، ومرورًا «بالعجز السياسي» ووصولاً إلى «تربية خالية من قيم الحرية» [٥، ص ٣٦، ٣٧].

ويبدو أن الموقف الأيديولوجي السياسي وليس الاستمولجي (المعرفي) من ألمانيا وسياساتها الخارجية في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى وتحديدًا الثانية وخاصة في إطار السياسة الهتلرية يفسر إلى حد كبير موقف هؤلاء الباحثين المناصرين للنظرية النفسية للثورة الألمانية والتي تشكك في القدرات العقلية والتوجهات الثقافية الألمانية وفي فشل الثورة على هذا الأساس. ويلاحظ أن معظم هؤلاء الباحثين هم من دول التحالف المناهض لألمانيا وخاصة بريطانيا وفرنسا وأمريكا. بل إن واحدًا من أبرزهم وهو Lewis Namier كان يهوديًا وكان الأمين العام السياسي للوكالة اليهودية من أجل فلسطين خلال الفترة ١٩٢٩-١٩٣١م [٢٩، ص ٤٦].

إذن هناك ثمة موقف مسبق من ألمانيا وعليه فإننا نتفق ومقولة إن تلك التفسيرات في أحسن أحوالها يمكن النظر إليها على أنها متحيزة وأحادية الجانب [٥، ص ٣٧]، وأنها في أسوأها تجازف بأصحابها «بتقويض معاييرهم ذاتها». بإسهامهم في الإزدراء من العجز «الليبرالي» كما هو شائع لدى الكتاب السوفيت والنازيين» [٢٦، ص ٣١٠].

(هـ) النظرية القومية - الليبرالية : إضافات أخرى

إذا ما تجاوزنا تلك النظرية النفسية للثورة ومناصريها، فإننا نجد عددًا من الباحثين أو الملاحظين من خارج ألمانيا - علاوة على أولئك الذين ذكرناهم في معرض عرض رؤيتهم المضادة لتفسير نظرية الثورة الاجتماعية، والتي تميل إلى التشديد على ليبرالية الثورة ١٨٤٨م - يقدمون ملاحظاتهم وتفسيراتهم في إطار النظرية الليبرالية - القومية، من هؤلاء الباحث الإنجليزي قوتش G. P. Gooch، يقدم تفسيراً للثورة الألمانية ١٨٤٨م، في الإطار الأوسع

للتطور والتنمية السياسية وبناء الدولة القوية، بناء عليه، فإن G. P. Gooch يميل إلى التركيز على العنصر القومي في الثورة عندما يقول:

«إن الإنجاز السياسي البارز للشعب الألماني في القرن التاسع عشر كان تأسيس الدولة القومية، وإن سنة الثورات كانت علامة بارزة في هذا الطريق. إنها لقصة تجربة شجاعة وامتعاض شديد لوطنيين ذوي عقول سامية واجهوا عملاً إنسانياً كبيراً. ومع ذلك فإنها لم تكن كلها فشلاً ذلك أنها صاغت أفكاراً نبيلة وأورثت ذكريات ملهبة» [٣٢، ص ٨٠].

ويختتم تقويمه بتقديم صورة متوازنة عن حصاد ١٨٤٨-١٨٤٩ م قائلاً في المقام الأول، فقد تلقت الليبرالية ضربة لم تنهض منها... وثانياً وبالرغم من أن المؤسسات ودساتير ١٨٤٨ م تحيت سريعاً فإن الرغبة نحو دولة - قومية عاشت في قلوب وعقول الملايين» [٣٢، ص ٨٥].

وفي هذا السياق يمكن القول إن ملاحظات نور الدين حاطوم عن التطور السياسي الأوروبي والنهضة والقوميات تتبنى تفسير الثورات لعام ١٨٤٨ م على أنها ثورات ليبرالية وقومية وذات طابع سياسي واضح. وفي ذلك يقول نور الدين حاطوم إن الحركات الثورية ١٨٤٨ م كانت أوسع من حركات ١٨٤٧ م والتي بدأت غامضة وناقصة «والحادث الحاسم فيها كان في ثورة باريس ٢٤ فبراير ١٨٤٨ م والتي كان من نتائجها تقوية الحركات التي بدأت من قبل في إيطاليا وبخاصة في ألمانيا ويأتي بعد ذلك يوم ١٣ مارس ١٨٤٨ م في فيينا... وكانت الحركات عامة، وكانت الثورات في آن واحد ليبرالية وقومية معاً» [٧، ص ٢٣٧]. وباختصار فإن حاطوم يرى أن «هذه الحركات، التي كانت انعكاساً مباشراً لثورة باريس كانت متواضعة في ألمانيا الغربية... وتناولت مطالب سياسية دون ثورة بالمعنى الأصلي للثورة» [٧، ص ٢٣٩].

ويتفق ديفد كونرادت David P. Conradt مع تلك الأطروحات عن الثورة الألمانية ١٨٤٨ م باعتبارها ثورة الليبراليين من الطبقة الوسطى والذين تشكلوا في أغلبهم من المثقفين والمهنيين والذين يهتمهم على أنهم ومقارنة بنظرائهم البريطانيين من حيث الخبرة والبراعة السياسية يعتبرون متخلفين في الأقل بما يساوي خبرة فترة لجيل بأكمله. كما أنه يعزو فشل الثورة إلى انقسامهم وعدم اتفاقهم على من يقود البلاد [٩، ص ٣].

أما برنادوت شمت Bernadotte S. Schmitt فإنه ومن خلال النظر إلى أهداف الثورة الألمانية ١٨٤٨م على أنها وإن كانت ذات أهداف مشوشة ومتعارضة في بعض الأحيان مثلها مثل ثورات ١٨٤٨م في وسط أوروبا، إلا أنها على مستوى الوعي السياسي كانت «تطمح إلى قوة قومية قوية بحكومة ملكية دستورية على نحو مقارب لتلك التي أطيح بها في التوفي فرنسا. إن برلمان فرانكفورت كان الرمز لهذا الحكم الألماني» [٣٣، ص ٣].

إضافة إلى ذلك، تأتي ملاحظات السفير الأمريكي في برلين ١٨٤٨م والذي كان شاهداً على تلك الأحداث لتصب كثيراً في خاتمة النظر إلى الثورة الألمانية ١٨٤٨م وتفسيرها في الإطار الأوسع لليبرالية وإن كانت ممزوجة برغبات قومية. في مارس ١٨٤٨م، يكتب السفير الأمريكي آنذاك اندرو جاكسون دونلسون Andrew Jackson Donelson ، قائلاً: «ومع ذلك فإن الشعب لم يرتدع بمطالبة الملك بتنازلات ليبرالية كتلك التي منحتها بافاريا والقوى (الدويلات) الجنوبية. . إن انطباعي في ذلك الوقت عن الحركة الثورية الحالية في أوروبا، كمحاولة لنشر الحرية، هو، أنها تجلب صراعاً مباشراً للأعراق الألمانية والفرنسية وكذلك السلافية. . إنني أرى فرصة لمساعدة قضية الإصلاح القومية والحرية» [٦، ص ٣٥٨، ٣٦١، ٣٧٣]. مستفيداً من كونه شاهداً على الأحداث، فقد كان باستطاعة الوزير الأمريكي أن يرى عملية التحالف والتعاون بين الطبقة الوسطى والنظام القائم. عن تلك النقطة يقول: «وعلى نحو متزامن مع ذلك المرسوم فإن البرجرز (Bergers) قد قبلوا إدخال جزء من الجيش القديم بغرض المساعدة في قمع أعمال الشغب» [٦، ص ٣٧٣].

رابعاً: نظرية الأزمة والتحلل والتآكل السياسي

يمثل هذه النظرية جون جيلس John R. Gillis ، والذي مررنا على ذكره، حيث يميل إلى تفسير الثورة الألمانية ١٨٤٨م على أساس من الأزمات الدستورية السياسية والإدارية. إن John R. Gillis يجادل بأن البيروقراطية البروسية وكبار موظفيها كانوا مولعين جداً بأعجاد الماضي إلى درجة عدم قدرتهم الاستجابة لأحداث ١٨٤٨م. وعلى نحو أدق ومقارن، فإن J. R. Gillis يتبع النمط الذي قدمه ووضعه Alfred Cobban في رفضه للتفسير الاشتراكي للثورة الفرنسية ١٩٨٩م [٣٤] كما قدمه بعض أنصاره أمثال George Lefbvre [٣٥]

والبيرسوبول Albert Soboul [٣٦]. وتحديدًا فإن الفكرة الأساسية التي يطرحها John R. Gillis عن الثورة الألمانية يمكن إبرازها على النحو التالي:

إنه وبمقارنة مع الثورات المعاصرة في الدول والمناطق النامية من العالم والتي يمكن تفسيرها على أساس من المواجهة والصراع بين الرأسمالية (البرجوازية) والإقطاع حيث علاقة الصراع بالانقسامات الاجتماعية والاقتصادية، فإن الثورات الأوروبية في القرنين الثامن والتاسع عشر لم تعد قابلة لأن تفسر على هذا الأساس. إن السبب في ذلك يعود إلى أن الصراعات في فرنسا وبروسيا في تلك الفترة كانت تركز على قضايا ومشكلات إدارية ودستورية تسببت في اندلاع تلك الثورات وأثرت في نهايتها واتجاهاتها على نحو يبدو على قدر كبير من التشابه والتجانس. ذلك أن الملاحظة على كل الحالات الثورية الأوروبية تلك، تشير إلى أنه بمجرد حدوث التفكك الأولي لنظام الحكم فإنه عادة ما يتولد فراغ سياسي (فراغ سلطة) والذي عادة ما تحاول أجنحة (قوى سياسية) تتصف بعدم التماسك والتنظيم أن تملأه سريعًا، وهي في حالة تصارع فيما بينها على الرؤية والصورة التي يمكن أن تكون عليها الجماعة السياسية الجديدة (نظام الحكم الجديد). إضافة إلى ذلك فإن فشل أنظمة الحكم القائمة في التعامل مع المشكلات الإدارية والدستورية قد أضعف البنى والمؤسسات القديمة ليس فقط بعيون القوى أو الأجنحة الليبرالية المعتدلة وكذلك الراديكالية، وإنما أيضًا في عيون القوى المحافظة والتي عادة ما ترتبط بتلك النظم القديمة. وفي هذا السياق فإنه يلاحظ أنه حتى طبقة النبلاء ورجال الدين تبدأ في سحب دعمها ومساندتها لأنظمة الحكم القديمة حالما تشعر وتدرك حقيقة انهيار المؤسسات القديمة لتلك الأنظمة. وفي إطار هذا السياق يلاحظ أن المحافظين في كل من فرنسا وبروسيا، وإن كانوا يحلمون بإعادة نظام الحكم الإقطاعي، فإنهم يبدؤون بالتخلي عن تلك الأحلام حالما يواجهون وقائع الانهيار والسقوط السياسي [١٥، ص ٣٦٣، ٣٦٤].

غير أنه ومع رصد التحليل المقدم من John R. Gillis وملاحظته نصطدم بمفارقة مثيرة ترتبط بمسألة ماذا يسبب ماذا؟ ذلك أن John R. Gillis يحاول أن يتلمس مصادر التآكل السياسي البروسي وانهياره بالرجوع إلى الوراثة إلى المتغيرات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية. إن مقولته تفصح عن ذاتها، عندما يقول:

«إن أسباب التآكل السياسي في فرنسا وبروسيا قبل ثوراتها ليس من السهل اكتشافها، ذلك أن أبحاثاً قليلة كرسّت عن المؤسسات والنخب ذات الصلة بالموضوع تحت البحث. إن أعمالي عن البيروقراطية قبل الثورة ١٨٤٨م وأثناءها وبعدها، قد قادني إلى الاعتقاد بأن التغيرات الاجتماعية والفكرية والاقتصادية المعارضة كانت إلى حد كبير مسؤولة عن التآكل» [٦، ص ٣٥٨].

غير أنه ومع تلك المفارقة، فإن هذا التحليل، بنظرة متوازنة، يقدم على ما يبدو تفسيراً جيداً وذلك بإلقاء ضوء جديد على الثورة الألمانية ١٨٤٨م يبدو أن الدراسات السابقة لم تهتم به كثيراً. إن الشيء المثير في هذا التفسير ينبع من حقيقة كونه لا يركز على الحركة الليبرالية والقومية كما هي في ذاتها وإنما يضيف بعداً جديداً يتمثل في الجهاز البيروقراطي ومدى استجابته للتطورات البروسية في ١٨٤٨م، ولعل هذه النقطة تلتقي وبعض الاتجاهات الحديثة في العلوم السياسية من حيث تحليلها للثورات ولنظريات التنمية السياسية ومنظورها، والذين يرون أثر التحديث على ثورة التوقعات ونمو الطبقات وتحلف البنى السياسية عن الاستجابة للمطالب الجديدة، وبالتالي توليد حالة من عدم الاستقرار أو الثورات وخاصة في الدول النامية وذلك قياساً على التجربة الأوربية [٣٧-٤٠].

خامساً: النظرية أو الاتجاه التوفيقي والثورة الألمانية ١٨٤٨م

إن سمة التوفيقية في هذه النظرية هي في حقيقة الأمر مسألة اختيارية وذاتية اختيرت فقط لتمييز باحثيها ومناصريها - عن الآخرين - من حيث إن المنضوين تحت هذه النظرية إنما ينظرون إلى أحداث ١٨٤٨م من خلال إطار أوسع ويرون في ثورة ١٨٤٨م أنها عملية أو سيرورة تحيط بعوامل (متغيرات) متنوعة وعديدة وعلى نحو أوسع.

إن ثورة ١٨٤٨م بالنسبة لهم لا تفسر على أساس من قضية أو عنصر منفرد. كما مر بنا سابقاً، فإن نظرية الثورة الاجتماعية (الاشتراكية) تركز على فكرة الصراع الطبقي، والنظرية الاقتصادية والاجتماعية تركز على التطورات الاقتصادية الاجتماعية، بينما النظرية الليبرالية - القومية بتفرعاتها وتشعباتها، اعتماداً على أحكام قيمية أو مواقف أيديولوجية، تركز على هذا الجانب أو ذاك أو على كليهما؛ وتبقى مدرسة أخرى تهتم بالتحلل والتآكل البيروقراطي. بناءً عليه، فإن كلاً من تلك النظريات وهي تركز على عنصر أو عناصر معينة

لثورة أهملت عناصر أخرى . تلك الوضعية ولدت مصاعب صاحبت تلك النظريات مما ولد الرغبة عند عدد من الباحثين لمعالجة الموضوع من منظور أشمل بالأخذ بعين الاعتبار معظم الجوانب والعناصر والمتغيرات . هذا التوجه لدى عدد من الباحثين هو الذي دعانا إلى تسميته ، ولربما كان ذلك جدير به ، بالمنظور أو النظرية التوفيقية .

إن الذين نظروا إلى الثورة الألمانية ١٨٤٨م انطلاقاً من الأخذ في الاعتبار عوامل متنوعة واسعة (اجتماعية، سياسية، اقتصادية، أيديولوجية، وقضايا إدارية، مع الاهتمام بمسألة التحليل الزمني على نحو أعمق)، ثم فسروها على هذا الأساس هم في حقيقة الأمر قلة من الباحثين .

لعل أفضل من يمثل هذه النظرية هو كل من جاك دروز Jacques Droz وبيتر ستيرنز Peter N. Stearns على الرغم من أن كلاً منهما يركز على بعض الجوانب أكثر من غيرها . عليه فإن Jacques Droz ينظر إلى الثورة الألمانية ١٨٤٨م على أنها نتاج لتراكم من الأزمات الاقتصادية في الفترة ١٨٤٧-١٨٤٨م، ولعنصر أيديولوجي (القومية والليبرالية) وكذلك لتغيرات سياسية واجتماعية أخرى حدثت في الفترة ما بين ١٨١٥-١٨٤٨م . انطلاقاً من هذا التصور فإن Jacques Droz يدعو، في خاتمة مقولاته إلى الحاجة إلى تفسير يتسم على نحو أكبر بالتوازن لعام ١٨٤٨م حيث يقول :

«لقد لوحظ حقاً، أن ثورات ١٨٤٨م كانت نتيجة للتوافق المتزامن لكل من الأزمة الاقتصادية والاستياء السياسي . . لذلك فإن أي تفسير أحادي الجانب للحركة الثورية سيواجه صعوبات جمة ؛ عليه فإنه يبقى ضرورياً تأسيس قدر معقول من التقدير لوجهة النظر المهمة عن العنصرين الاثنين» [٤١، ص ٢٤٥] .

ومع أن جاك دروز Jacques Droz يعطي أهمية واضحة على ما يبدو للعنصر الأيديولوجي المصاحب لأحداث ١٨٤٨م وخاصة على الليبرالية والقومية ، إلا أنه من خلال عباراته الختامية يلاحظ تداخلها مع البنى الاقتصادية والاجتماعية في تفسيره لطبيعة الثورة وخاصة نهايتها . إنه يقول :

«لاشك أن المسألة الأساسية لرجال ٤٨ والقضية الجهورية لفشلهم تنبع من حقيقة أن الثورات، وقد ألهمت بالإصرار الجماعي لشعب أوروبا في الحصول على حريته وقوميته، حدثت في وقت كان فيه البناء الاقتصادي والاجتماعي - والذي لا يزال على نحو قوي يتصف بصياغات النظام

القديم - لم يسمح للطبقات المحرومة بأن تصنع قضية عامة ضد الطبقات الحاكمة وأن ترفع شعار الثورة الاجتماعية» [٤١، ص ٢٥٥، ٢٥٦].

أما بيتر ستيرنز Peter N. Stearns فإنه يقدم تحليلاً أشمل للثورة الألمانية ١٨٤٨م حيث يقدم مداخله محددة عن أسباب الثورة ١٨٤٨م، وفيما يخص ألمانيا، فإنه يحلل كل مجموعة - الطبقة الوسطى والطبقات الدنيا والمتطرفون وقوى النظام القائمة - من حيث أدوارها في الثورة ومطالبها وكذلك خلفيتها وأساسها الأيديولوجي. ومع ذلك فإنه قد توصل إلى نتيجة مفادها أنها الطبقة الوسطى وكذلك عدم تماسك الطبقات في مقاتلتها للنظام القائم هي التي أسهمت في توحيد الاتجاه الذي سلكته الثورة الألمانية. عدا عن ذلك فإنه أيضاً يركز على ما يبدو على النظرة القومية للثورة الألمانية ١٨٤٨م عندما يقول: «حيث إنه لم يكن هناك عدو خارجي في ألمانيا لمقاتلته، فإن القوميين هم بالأحرى الذين كانوا يأملون بأن تقود المناقشات إلى صهر الولايات المنفصلة والتي حدثت فيها الثورة أو الهيجان» [٤٢، ص ١٤٠].

وفي موازاة هذه الخطوط من التفسير، فإنه بالإمكان إضافة باحثين آخرين والذين ينظرون للثورة ١٨٤٨م من خلال إطار أوسع يتضمن رؤية الأحداث فيها من خلال نتائج تحولات وتراكمات قوى تعود تاريخها إلى ١٨١٥م. وبالإضافة إلى أولئك الذين مروا بنا والذين ركزوا على التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصناعية أمثال هولبورن Holborn وهوبزباون Hobsbawn وكذلك نور الدين حاطوم، فإن هناك من يستحق الإشارة إليه على أنه ينظر إلى الثورة الألمانية من هذا المنظور ألا وهو ملفن كرانزبيرج Melvin Kranzberg ففي تقديمه لكتاب (A Turning Point? 1848)، فإن Kranzberg ينظر إلى الثورة ليس فقط على أساس أنها نتاج لحركة الليبرالية والقومية للبرجوازية (الطبقة الوسطى)، ولكن أيضاً على أنها نتيجة لتغيرات أخرى اقتصادية واجتماعية تصاحبت مع جمع واستياء سياسي، والتي تراكمت في الفترة ما بين ١٨١٥-١٨٤٨م [٢٨].

الخاتمة: الثورة الألمانية ١٨٤٨م، نظرية أم نظريات: العوامل والأثار

ابتدأت الدراسة بنقطة أساسية عن البحث عن إمكانية توافر نظرية للثورة الألمانية ١٨٤٨م وبالتالي عن إمكانية تعدد النظريات وعن إمكانية التباين والتنوع والتناقص في

النظريات والتفسيرات المقدمة عن الثورة الألمانية ١٨٤٨ م ومتغيراتها وآثارها. ويبدو أن الفرضية الخاصة بالتعدد والتنوع أمكن التحقق منها على نحو حسن. وذلك أن الدراسة أبرزت توافر عدد من التفسيرات (والنظريات) ابتداءً بنظرية الثورة الاجتماعية وتفسيرها للثورة وأسسها ومروراً بالنظرية الليبرالية - القومية وتفسيرها الليبرالي - القومي في تشعباته وتفرعاته سواء من المناصرين أو المناهضين له وكذلك بأطروحات نظرية التحلل والانهار المؤسسي وعدم الاستجابة للمتغيرات ووصولاً للنظرية التوفيقية وتفسيرها التوفيقى والذي يرى بشمولية العوامل والمتغيرات وأثرها في الثورة. وعلى الرغم من ذلك التباين والتناقض فإنه قد ظهرت بعض المفارقات^(١) في المقاربات وخاصة بين نظرية الثورة الاجتماعية وكذلك النظرية الليبرالية - والقومية النازية أو المعادية للسياسة الخارجية الألمانية من حيث الاشتراك في التشديد على التوجه القومي في مواجهة العجز الليبرالي.

ومن أكثر المفارقات إثارةً هو اتفاق معظم - إن لم يكن - كل (النظريات) والتفسيرات حول الدور الذي قامت به الطبقة الوسطى في الثورة الألمانية ١٨٤٨ م. وإذا مانظرنا إلى تلك النظريات والتفسيرات من منظور المتوالية، فإننا نلاحظ أنه من اليسار وحتى اليمين فإن جميع النظريات والتفسيرات قد اعترفت بدور الطبقة الوسطى، وتحديدًا شرائحها العليا، ودورها الحاسم خاصة في إخماد نار الحركة الثورية وإجهاضها. الجميع متفق على أن الطبقة الوسطى بتحالفها مع قوى النظام القديم القائم ساعدت على نحو حاسم في وضع نهاية العملية الثورية، وذلك نتيجة تخوف الطبقة الوسطى، كما تشير معظم تلك التفسيرات، من شبح الشيوعية أو قوة العمال الصاعدة.

ومع ذلك فإن الاختلاف والتعارض يبقى واضحاً بينها، ولعل ذلك يعود إلى عوامل عديدة أبرزها الموقف الأيديولوجي أو السياسي المنحاز ضد الثوار أو ألمانيا أو معها وكذلك الظروف السائدة. فمن حيث الموقف الأيديولوجي يمكن ملاحظة المناصرين لنظرية الثورة

(١) هناك اختلاف بين المفارقة والتناقض ذلك أن المفارقة تعني، كما يقول الطاهر وعزيز «المفارقة كل ما هو معارض للرأي العام أو القبول، وليس بالضرورة باطلاً، أي أنه لا يخرج عن طبيعة الأشياء. أو، كما قالت الموسوعة البريطانية، هو ما يدهش ولكنه حق، أو حق يبدو باطلاً...» [٤٣، ص ٧٢-٧٨].

الاجتماعية والتزامهم الأيديولوجي بنظرية الصراع الطبقي وكذلك الليبراليين وأنصار النظرية الليبرالية أمثال فيت فالتن Viet Valentin حيث إنه يعتبر أعظم باحث ومناصر للحركة الليبرالية الأولى [٢٨، ص ٤٠]. في المقابل فإن الظروف السائدة ألقت بظلالها على عدد من تلك النظريات والتفسيرات، ولعل أنصار النظرية القومية والليبرالية الألمانية كانوا متأثرين بالتوجه السياسي الألماني المنصب على التوحيد. بينما أدى الانفراج في قضية الوحدة وخاصة بعد ١٨٩٠م إلى ظهور دراسات وتوجهات نحو التركيز على ليبرالية الثورة أكثر من قوميتها. وتأتي فترة الثلاثينيات وحكم النازية لتشدد على التوجه القومي في معارضة التوجه الليبرالي. ومن خارج ألمانيا يلاحظ أيضاً أن عدداً من الباحثين - خاصة وأنهم كتبوا كتاباتهم عن الثورة في أعقاب الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا وطموحاتها التوسعية - شدد على مهاجمة ألمانيا وتوجهاتها الفكرية بما فيها توجهات ثوار ١٨٤٨م والذين اتهموا بالعجز والفشل والخلل النفسي. ولعل دراسات كل من Lewis Namier وكذلك Taylor تمثل هذه الأيديولوجية السياسية المعادية لألمانيا إما على أسس دينية وعرقية كما يبدو أنها لدى Namier حيث يهوديته ومعاداته للنازية وألمانيا أو كموقف سياسي مناهض للسياسة الخارجية الألمانية في صراعها مع العالم الخارجي وخاصة بريطانيا كما هو واضح لدى تايلر Taylor.

وفي تأثير العامل الشخصي على الباحث في تفسيره لأحداث ١٨٤٨م يبدي

Melvin Kranzberg الملاحظة التالية:

«إن مهمة تفسير ١٨٤٨م تبقى معقدة على نحو أكثر بسبب أن حقيقة الانفجارات على الرغم من عصريتها، تختلف من بلد إلى آخر، مارة بمراحل مختلفة وعديدة داخل كل بلد إلى درجة أن التحليل المقدم من أي مؤرخ يستلزم بالضرورة أن يعتمد على نظريته الشخصية لتاريخ القرن التاسع عشر وهو ما يؤثر على خياره في التركيز» [٢٨].

لعل العلاقة بين الباحث وموضوعه ليست جديدة في حقل العلوم الاجتماعية، ذلك أن النظرية لا تبني من فراغ وإنما كما تقول النظرية النقدية: «تبنى بواسطة أفراد بتوجهات محددة، ومن خلفيات محددة وعند وقت معين» [٤٤، ص ١١]. على هذا الأساس لا يمكن للنظرية أن تكون محايدة وإنما عادة ماتخدم غرضاً محدداً أو خاصاً.

وحيث الأمر كذلك فإنه، وقد تبين ذلك من خلال هذه الدراسة، لا يمكن أن نقول إننا توصلنا إلى نظرية محددة عن الثورة الألمانية وإنما عن نظريات وتفسيرات متعددة ومتنوعة

تتقاطع ولكنها تتمايز في عدد من العوامل ذات الصلة بالثورة وطبيعتها وحقيقتها سواء تعلق ذلك بالمقدمات أم السيورة أم النتيجة .

تلك النقطة تؤدي بنا إلى تساؤل آخر وهو إذا كنا أمام عدد من النظريات والتفسيرات ، المرتبطة بعوامل ومتغيرات ذات علاقة بالباحث والموضوع سواء كان ذلك في إطار القيم أو المواقف والتي أدت إلى عدم توافر نظرية محددة ومقبولة للثورة الألمانية في هذا المقام ، ولربما لغيرها في مقام آخر ، فهل يعني ذلك أن نستبعداها؟
الجواب على ذلك ، أننا وبالرغم من أن تلك الإشكالية وما تلقيه من ظلال وآثار سلبية على بناء نظرية متماسكة تبدو أكثر قبولا ومعقولة ، فإننا نرى أن تلك النظريات تحتوي على بعض من الحقيقة أو أجزاء منها [٤٥ ، ص ٤٠ ، ٤١ ؛ ٤٦ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ ؛ ٤٧ ، ص ٩٠ ، ٩١] .

وبلغة نقد النص ومنهجه ، نقول إن كل نظرية تصبح مقنعة بقدر ما تبرزه من حقيقتها من خلال النص أو المقولات ومن ثم معرفتها وسلطانها [٤٨] . غير أن ما تخفيه وما لا تقوله يدل على قصور النظرية ذاتها . ولعلنا إذا انطلقنا من هذه الأرضية (ومع ما عليها أو ما يرد عليها من تساؤلات) فإننا نقول إن المسألة إذن ليست في طرح المعرفة أو النظرية بالثورة وإنما فيما تقدمه نصوص ومقولات تلك النماذج النظرية من تمثيل لذلك الواقع (واقع الثورة الألمانية ١٨٤٨ م) والذي ينطوي ، وهنا مكن المشكلة والخطورة ، على نظرية الثورة هنا ، على قدر من الإهمالات والأخطاء للواقع . والمشكلة إذن تكمن في التباين بين ماتدعيه أو تزعمه النظرية من معرفة أو حقيقة عن الواقع وبين الواقعة في ذاتها وفي كينونتها وطبيعتها ؛ ذلك أن زعم النظرية إنها هو ليس في حقيقته إنها تقدم معرفة عن الواقعة وإنما في حقيقتها المعرفية الذاتية باعتبارها أقرب إلى تمثيل أو تصوير على نحو ما لتلك الواقعة وتلك تبدو منفصلة عن حقيقة الواقعة أو أنها جزئية من تلك الواقعة .

نخلص من ذلك كله لنقول إن تعدد النظريات عن الثورة الألمانية وتباينها يبدو ، إضافة لتلك العوامل الشخصية أو الأيديولوجية أو القيمية ، مفهوم ذلك أن كل نظرية تحمل في مقولاتها حقيقتها المعرفية وبالتالي سلطتها ، ضعفاً أم قوة ، ويعتمد ذلك على ما أدخلته من افتراضات وتصورات وعوامل أو على ماسكتت عنه في تمثيل وتصوير تلك الحالة الثورية الألمانية .

من هنا يمكننا أن نفهم، والحالة هذه على مستوى نظرية أو نظريات الثورة الألمانية ١٨٤٨م من تشتت واختلاف وتنافس، ماذا يمكن أن تؤدي له حالة ثورية مالميس على إنتاج حالات معرفية (نظرية) متعددة وإنما ما تؤديه هي مع غيرها من حالات إلى تنوع وتناقض أكبر على مستوى نظرية أو نظريات الثورة في إطارها العام سواء أكان على مستوى المفاهيم والمنهجية أم الإنجازات والنتائج والقوانين [٤٩] وهو ما يعني، بشكل آخر، تفاقم أزمة النظرية والتنظير عن الثورة والتغير السياسي.

ونحن نعتقد أنه بالرغم مما لتلك النتائج من آثار تبدو سلبية على تطوير وإثراء النظرية، وهنا ما يخص مسألة الثورات ونظريتها، فإنه يبدو لنا أن ذلك، وهو يرتبط على أية حالة بمعضلة الإنسان في إطارها المعرفي، ينطوي على عوامل إيجابية من حيث إنه: (١) يفصح عن جوانب من الحالة ذاتها (الحالة الألمانية) متعددة بحيث تعطي أو تكشف عن زوايا (عوامل وقوى ومتغيرات) تبدو مهمة من جانب تلك التفسيرات والنظريات إذا أخذت بمفردها وبمعزل عن التفسيرات الأخرى. لذلك فإنه وعلى الرغم من تعدد تلك الدراسات وما يلاحظ عليها من تناقض وهو ما أثر سلباً على توافر نظرية بعينها، فإن تلك الوضعية بالذات تبدو إيجابية في الوقت ذاته، ذلك أن النظريات والتفسيرات هي نصوص وتأولات نضعها في مواجهة بعضها، تكشف لنا عن عيوبها وما تخفيه وتساعدنا على أن نتوافر على رؤية أكثر شمولية وكذلك أكثر فطنة وحذراً تجاه المستبعد والمضاف من العوامل والمتغيرات. وبالتالي استثمارها أو التحفظ عليها في تطوير أبحاث ودراسات باتجاه نظرية متوازنة ومقبولة للحالة الثورية، (٢) تولد الحاجة نحو مزيد من الدراسات والتي تقترب أكثر من الواقع وبالتالي تبدو كقوة محركة في المسار المعرفي الإنساني. على هذا المستوى من الصراع والتنافس بين النماذج النظرية المعرفية Conflicting Paradigms في سياق ما أطلق عليه توماس كون Thomas Kuhn بنية الثورات العلمية [٥٠، ص ٦٦-١١٠]، يمكن أن ينظر إلى ذلك التعدد والتباين ولربما التناقض على أنه أمر إيجابي وطبيعي ومنسجم مع أزمت النظريات وقوانينها وتطورها على المستوى العام لنظرية أو نظريات الثورة.

وإذا جاز لنا أن نتجاوز (بالرغم مما يقع على ذلك من تساؤلات ضمن النسق النقدي ذاته) تلك الصيغ النظرية التجزئية للثورة الألمانية على نحو تجريدي فيمكن لنا أن نقول إن الثورة الألمانية هي ثورة سياسية بمضامين اجتماعية سقفاها السياسة حيث المطالب السياسية

وقاعها العلم والتكنولوجيا وأحشاؤها وبطنها تلك الإزاحات الاجتماعية والاقتصادية أو الفكرية - بكل تشعباتها الناتجة عن جملة من المتغيرات التكنولوجية والصناعة وتطبيقاتها المتراكمة - والمصطدمة أو المقيدة ببنى وهياكل غير مرنة في قبول أو صياغة المصالح المتنامية مقابل إعادة النظر في المصالح المتوارثة أو الانفلات منها.

غير أن تلك الأطروحة لاتحل لنا المشكلة على أية حال ذلك أنها إضافة إلى كونها نظرة مركبة تحاول أن تجمع بين معظم أطروحات النظريات الأخرى فإنها والحالة هذه نظرية تجميعية تحاول أن تجمع بين جزئيات حقيقة الثورة باعتبار أنها يمكن أن تمثل الواقعة وحقيقتها بكل أبعادها ولكن الحقيقة والواقعة لايمكن إلا أن تكون مختلفة. إن ما تستطيع أن تقدمه تلك النظرية التجميعية هو حقيقتها وسلطانها المعرفية عن تلك الواقعة (الثورة). إننا والحالة هذه نعود من حيث بدأنا ونقول إنه لاتوجد نظرية واحدة وإنما نظريات متعددة ومتنافسة عن الثورة الألمانية ١٨٤٨ م ولربما ذلك يفسر قيمة وأهمية العلاقة الجدلدية بين الإنسان (المعرفة) وبين الأشياء والظواهر (الحقيقة).

المراجع

- [١] Spalding, K. "The Idiom of a Revolution: Berlin 1848", *MLR* V. xlv: n-1 (January, 1949), pp. 60-74.
- [٢] Padover, S. (ed.). *Karl Marx, on Revolution*. N.Y: McGraw - Hill Book company, 1971.
- [٣] Short, E. Y. "Chronology of events leading up to and during the Revolutions of 1848-9", pp. 135-148, In: Eugene Kamenka & F. B. Smith, (eds.), *Intellectuals and Revolution: Socialism and the Experience of 1848*. N.Y: St. Martin's press, 1980.
- [٤] Marx, Karl. "From contribution of the critique of Hegele's Philosophy of Law: Introduction", pp. 30-31, In: Marx and Engeles, *The Socialist Revolution*. Moscow: Progress Publishers, 1978.
- [٥] Hamerow, Theodore S. "History and the German Revolution of 1848", *AHR*, No. 1 (Oct., 1954) pp. 27-44.
- [٦] Donelson, Andrew Jackson. "Documents: The american minister in Berlin, on the Revolution of March 1848", *AHR*, n.2 (Jan., 1918), pp. 355-373.
- [٧] حاطوم، نور الدين. تاريخ الحركات القومية: يقظة القوميات الأوربية (الحرية والقومية)، ج ٢. دمشق: دار الفكر، ١٩٦٩ م.

[٨] سيغمان، جان. *الثورات الكبرى في التاريخ ١٨٤٨م*، ترجمة هنريت عبود. بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٠م.

Conrad, David P. *The German Polity*. N. Y. & London: Longman, 1986. [٩]

Marx, K. *Revolution and Counter - Revolution*, 9th ed. Reverside: Edinburg, 1937. [١٠]

Engels, F. and Marx, K. *The Revolution of 1848-49: Articles from the Neue Rheinische Zeitung*. N. [١١]

Y: International Publishers, 1972.

Noyes, P. H. *Organization and Revolution: Working Class Associations in the German Revolutions* [١٢]

of 1848-1849. Princeton: Princeton Univ. Press, 1966.

Kertesz, G.A. "The View from the Middle Class; the German Moderate Liberals, and Socialism", [١٣]

pp. 61-75, In: Eugene Kamenka & F. B. Smith (eds.) *Intellectuals and Revolution*. N. Y.: St. Martin

Press, 1979.

Breuilly, John. "The Failure of Revolution in 1848", *European Studies Review*, Vol. 11: no. 1 (Jan., [١٤]

1981), pp. 103-116.

Gillis, John R. "Political Decay and the European Revolutions", *World Politics*, V. xx11: No. 3 [١٥]

(April, 1970), pp. 344-370.

Robertson, P. *Revolution of 1848: A Social History*. Princeton: Princeton Univ. Press, 1952. [١٦]

Hobsbawn, E. J. *The Age of Revolution: 1789-1848*. N. Y: A mentor Book, N. A. L, 1962. [١٧]

Holborn, H. *A History of Modern Germany 1840-1945*. Princeton, N. J: Princeton Univ. Press, 1969. [١٨]

Shorter, E. "Middle - Class Anxiety in the German Revolution of 1848", *J S H*, (spring, 1969), pp. [١٩]

190-214.

O'Boyle, L. "The Democratic Left in Germany, 1848", *JMH*, V. xxx111: No. 4 (Dec., 1961), pp. [٢٠]

374-383.

Breunig, C. *The Age of Revolution and Reaction, 1789-1850*. N. Y & London: W. W. Norton & [٢١]

Comp., 1977.

Skocpol, T. *States and Social Revolutions*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1979. [٢٢]

Goldstone, Jack A. "Theories of Revolution; the Third Generaton" *World Politics*, V. xxxii:3 [٢٣]

(April, 1980), pp. 431-453.

Valentin, Viet. "Finis, Results and After", pp. 40-48, In: Melvin Kranzberg (ed.), *1848: A Turning* [٢٤]

Point?. Lexington, Mass: D.C. Heath & comp., 1959.

- Meinecke, Friedric. "The Year 1848 in German History: Reflections on a Centenary", pp. 54-63 in [٢٥]
Melvin Kranzberg (ed.) *1848: A Turning Point?* op. cit.
- Rothfels, Hans, "1848: One Hundred Years After," *JMH*, V. xx: No. 40 (Dec., 1948), pp. 291-319. [٢٦]
- Conze, Werner. *The Shaping of the German Nation*, Translated by Neville Mellon. N. Y: St. Martin's Press, 1979. [٢٧]
- Kranzberg, M. (ed.), "*1848: A Turning Point?*" Lexington, Mass: D.C. Heath & comp., 1959. [٢٨]
- Namier, Lewis B. "1848: Seed-Plot of History", pp. 64-74, In: Melvin Kranzberg (ed.) *1848: A Turning Point?* op. cit. [٢٩]
- Taylor, A. J. P. "The Year of German Liberalism", pp. 24-39, In: *1848: A Turning Point?*, op. cit. [٣٠]
- Pascal, R. "The Frankfort Parliament, 1848, and The Drang nach Osten", *JMH*, V. xv111: No. 2 [٣١]
(June, 1946), pp. 108-122.
- Gooch, G. P. "The Centenary of 1848 in Germany and Austria", pp. 80-86, In: M. Kranzberg (ed.) [٣٢]
1848: A Turning Point? Lixington, Mass.: D.C.Heath & comp., 1959.
- Schmitt, Bernadotte E. "1848: As Seen from 1948, pp. 1-8 In: Melvin Kranzberg" *1848: A Turning Point?* op. cit. [٣٣]
- Cobban, Alfred. *The Social Interpretation of the French Revolution*. Cambridge: Cambridge Univ. press, 1964. [٣٤]
- Lefebvre, Georges. *The French Revolution*. 2 vols. Translated by Elizabeth Moss Evanson (V.1) and John Hall Stewart and James Friguglietti (vol. 2), N. Y: Colombia Univ. Press, 1964. [٣٥]
- Soboul, Albert. *A Short History of the French Revolution 1789-1799*, Translated by Geoffery Symcox. Berkely & London: Univ. of Calf, Press, 1965. [٣٦]
- Huntington, Samuel. *Political Order in Changing Societies*. New Haven & London: Yale Univ. Press, 1968. [٣٧]
- Bill, James and Leiden, Carl. *Politics in the Middle East*. Boston, Turonto: Little Brown & co., 1970. [٣٨]
- Black, C. E. *The Dynamics of Modernization*. N. Y: Herper & Row, 1966. [٣٩]
- Levy, Marion J. Jr., *Modernization and the Structures of Societies*. Princeton N. J: Princeton Univ. Press, 1966. [٤٠]
- Droz, Jacques. *Europe between Revolutions: 1815-1848*. N. Y & Evanston: Harper and Row Publishers, 1967. [٤١]

- [٤٢] Stearns, Peter N. 1848: *The Revolutionary Tide in Europe*. N. Y: W. W Norton & co., 1974.
- [٤٣] الطاهر، عزيز. *المناهج الفلسفية. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م.*
- [٤٤] Brown, Robin. "Introduction: Toward a New Synthesis of International Relations", pp. 1-21 esp. p. 11, In: M. Bowker & Robin Brown (eds.), *From Cold War to Collapse: Theory and World Politics in the 1980s*. Cambridge: Cambridge Univ. Press, 1993.
- [٤٥] فضل الله، مهدي. *فلسفة ديكرات ومنهجه: نظرة تحليلية ونقدية*. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٦م.
- [٤٦] حرب، علي. *نقد النص. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م.*
- [٤٧] حرب، علي. *نقد الحقيقة. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣م.*
- [٤٨] حرب، علي. «أوهام الحداثة: قراءة في المشروع الأركوني»، *الاجتهاد*، عدد ٢١ (خريف، ١٩٩٣م)، ص ٧٣-٩٩.
- [٤٩] الفالح، متروك. *نظريات الثورة والعنف: دراسة تحليلية تقويمية*. القاهرة: مركز البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩١م.
- [٥٠] Kuhn, Thomas. *The Structure of Scientific Revolutions*. Chicago, Ill: U. of Chicago Press, 1962.

German Revolution of 1848: A Research about a Theory for the Revolution

Matrook Al-Faleh

*Department of Political Science, College of Administrative Sciences,
King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia*

(Received 12-6-1415; accepted for publication 3-12-1415 A.H..)

Abstract. Having assumed, in the course of searching for a theory of the German Revolution of 1848, the likelihood of having encountered not only one specific theory but rather various conflicting and sometimes paradoxical theories and interpretations, this study, after a vigorous research, seems to have adequately verified it. The study found out that while there is no specific theory for the German Revolution of 1848 that is generally agreed upon, it is the fact that there exist variety of interpretations or theories with highly conflicting and contradictory orientation and emphasis due seemingly to variety of factors ranging from ideological and/or political commitment favoring or opposing, revolutionaries or German outlook especially its foreign policy during 1914-17 and 1933-1935. Paradoxically, however, the study found that these theories and interpretations seem to agree on a strong point, that is the role of the middle class in cooling down the revolution and putting an end to its process through its alliance with the existing forces of the system. The study, having partially used a critical (textual) post-structural approach, has observed that the difficulty for having not reached one acceptable theory for the German Revolution has to do with the variables related to the researcher(s) as well as to the question of theory, in terms of its statements and their structure. This is so in pronouncing (saying) and or hiding certain elements, concepts, variables and related questions as well as assumptions, leading to its own reality of the matter (i.e. the revolution) which is less than actual reality of the matter. Accordingly the consequences of having no unified explanation or theory for the German Revolution will be of a great magnitude on the development of general theories of revolutions within the framework of conflicting paradigms.